المادة التاريخية والتصنيع الفني

الجمعة 20 ذو الحجة/ 1421هـ

الدكتور محمد شقير

إنه لعمل جيد أن يعمد إلى الإستفادة من التقنيات الفنية من أجل أن تؤدي تلك العملية دور الأنبياء، ووظيفة العلماء في إيصال العبرة وتقديم الموعظة إلى الناس، بطريقة تتجاوز فيها التلقين التقليدي إلى العرض المصور الذي يتميز بحيويته وجاذبيته وقدرته على تقديم المشهد النبوي بشكل كامل يستنفر كل حواس المشاهد وفكره لمتابعة الحدث، ويحاول قراءته وفهمه ليكون ذلك مقدمة للتماهي مع السلوك النبوي وجعله واقعاً حياً نعيشه ونمارسه.

وهذا العمل على أهميته، ثمة ملاحظات تكتنفه، ويمكن تقسيم تلك الملاحظات إلى قسمين: **الأول** يرتبط بالمادة التاريخية، **والثاني** يرتبط ببعض الامور التي يمكن ادراجها في الجانب الفني، ولكن على أن يقتصر البحث في القسم الاول.

على مستوى المادة التاريخية التي تعرض لحياة الأنبياء (ع) وتجاربهم، فإن المدقق في تلك المادة يمكن أن يتوقف عند النقاط التالية:

1- إن المادة تؤخذ من النصوص الدينية التي تتصدى لتاريخ الأنبياء وسيرتهم، وهذا يؤدي إلى أكثر من مفارقة بين تلك المادة الخام والمادة التلفزيونية. وبتعبير آخر: النص الديني ليس نصاً تلفزيونياً، أي هو لم يعدّ ليكون مادة تعتمد في الافلام التلفزيونية. صحيح أنه يمكن أن يعتمد كأساس يستفاد منه في صناعة المادة التلفزيونية، لكن هذا يحتاج إلى أكثر من عمل للوصول إلى مادة تصلح للعرض التلفزيوني.

ولا بد من التأكيد أن النص التاريخي النبوي نص غني بمضامينه، انه نص يعرض لعلاقة بين أطراف ثلاثة، مصدر الوحي ومتلقي الوحي والمجال الذي يتمثل فيه الوحي، وما يتضمنه من عنصر بشري، لذلك لن يكون من السهل الإحاطة بكل

أبعاد تلك العلاقة، وحتى النص فإننا لا نجد فيه كل تفاصيل وحيثيات تلك العلاقة، وإن كان يعرض لأهم احداثها ومحطاتها وما يساهم منها أكثر في ايصال المشاهد الى الاهداف التي يبغيها النص.

2- منطقة الفراغ في النص التاريخي: إذا أردنا إعداد النص التاريخي النبوي الجديد، ليكون نصاً صالحاً للعرض التلفزيوني فسوف نحتاج إلى ملء ما يمكن تسميته بمنطقة الفراغ في النص التاريخي النبوي.

إن النص التاريخي – ومن خلال أدواته اللغوية – في الوقت الذي يقوم فيه بعملية الكشف والتبيين، فإنه أيضاً يخفي ويُستر، ولذلك سيكون مطلوباً للصناعة التلفزيونية محاولة الكشف عما ستره ذلك النص، ولعلها تخرج بذلك منهجياً عن تقنيات تلك الصناعة، وبالتالي فإن تلك المادة الخام تحتاج إلى أهل اختصاص بها من ناحية، وأن يكون هناك دراية بشروط النص التلفزيوني من ناحية ثانية، ولذلك لن يكون من السهولة اعداد نص تاريخي موثق وهادف ويحتوي في الوقت نفسه على شروط المادة التلفزيونية، خصوصاً إذا كانت هذه التجربة ما زالت في مهدها.

إن المشاهد يجب ألا يشعر بوجود طفرات بين احداث النص ولا حتى بوجود طفرات في المشهد الواحد بين المواقف والعبارات التي يتضمنها الحوار، فالمشهد يجب أن يتميز بانسيابه وسلاسته والنص التلفزيوني يجب أن يكون بجميع فقراته ومفرداته منسجماً وأن يخيم عليه التسلسل المنهجي حتى يصل إلى هدف محدد.

إن النص التايخي الديني الذي هو مادة خام للنص التلفزيوني يحتاج إلى صناعة خاصة تعتمد منهجية وضوابط ذلك النص، حتى يمكن أن نصل إلى مادة تصلح لذلك العرض، ولا أقول إنها مهمة يسيرة أن تجمع بين ضوابط النص التاريخي الديني وضوابط النص التلفزيوني، لكن لا شك أن العمل بهذا الاتجاه يؤدي إلى تلافي الكثير من الاخطاء.

3- هدفية النص: إن التاريخ النبوي هو تاريخ هادف يريد أن يأخذ بيد السامع إلى أهداف محددة هي – أهداف الرسالات السماوية – إنه يريد أن يوصل العبرة ويعطي الموعظة وأن يلقيهما في قلب السامع. إن النص المنتج يجب أن يكون غنياً بالمفاهيم مليئاً بالمداليل وأن يحاول في مادته التي يقدمها أن يوصل المشاهد إلى أقصى تلك الغايات التي أراد التاريخ النبوي أن يصل إليها وعليه ألا يشعر المشاهد أن تلك المادة قد ضاع عنها الهدف أو انها خاوية من دلالتها، أو انها لم تستطع أن توصل الماهد بيسر إلى تلك المفاهيم التي يختزنها النص التاريخي.

4- تاريخ نبوي أم سير شخصية؟ قد يركز في ذلك العمل على السيرة الشخصية للأنبياء (ع)، مع أنه إذا أتينا إلى المنهج الذي يعتمده القرآن الكريم في عرضه لحياة الأنبياء (ع) فإنا نلاحظ أن هناك تقديماً لتاريخ جمعي وليس لتاريخ فردي، التاريخ النبوي كما يعرضه القرآن الكريم هو تيار جارف تذوب فيه المعاني الشخصية، وإن كان النبي محوراً أساسياً وعاملاً مهماً في صناعة هذا التاريخ وإنتاجه، وحتى عندما يعرض لسيرة النبي الشخصية فإن الجانب الجمعي يكون ماثلاً بوضوح في تلك السيرة، ولو على مستوى الهدف والنتيجة.

لذلك فالتركيز على السيرة الشخصية والذاتية للأنبياء (ع) إلى حد كبير يؤدي إلى عملية تقزيم وتحجيم لذلك التاريخ الذي ينطوي على جدليات كونية وسياسية واجتماعية عميقة جداً، فليس من المطلوب تعقيد النص التلفزيوني وفي الوقت نفسه ليس من المطلوب تسطيحه، بل يجب أن يبتغي بين ذلك سبيلا. إن هذا النص يجب أن يكون غنياً ما أمكن بمداليله – ومنها ما يرتبط بالجانب السياسي الاجتماعي – وأن يكون مليئاً بتلك المفاعيل والعبر التي أراد القرآن الكريم أن تصل إلى عموم الناس، وفي الوقت نفسه أن يتم إيصالها بيسر ووضوح حتى تؤدي الغاية المرجوة منها.